# منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الزمان للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

"21عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

www.almadasupplements.com

العدد (5931) السنة الثانية والعشرون - الأربعاء (25) حزيران 2025


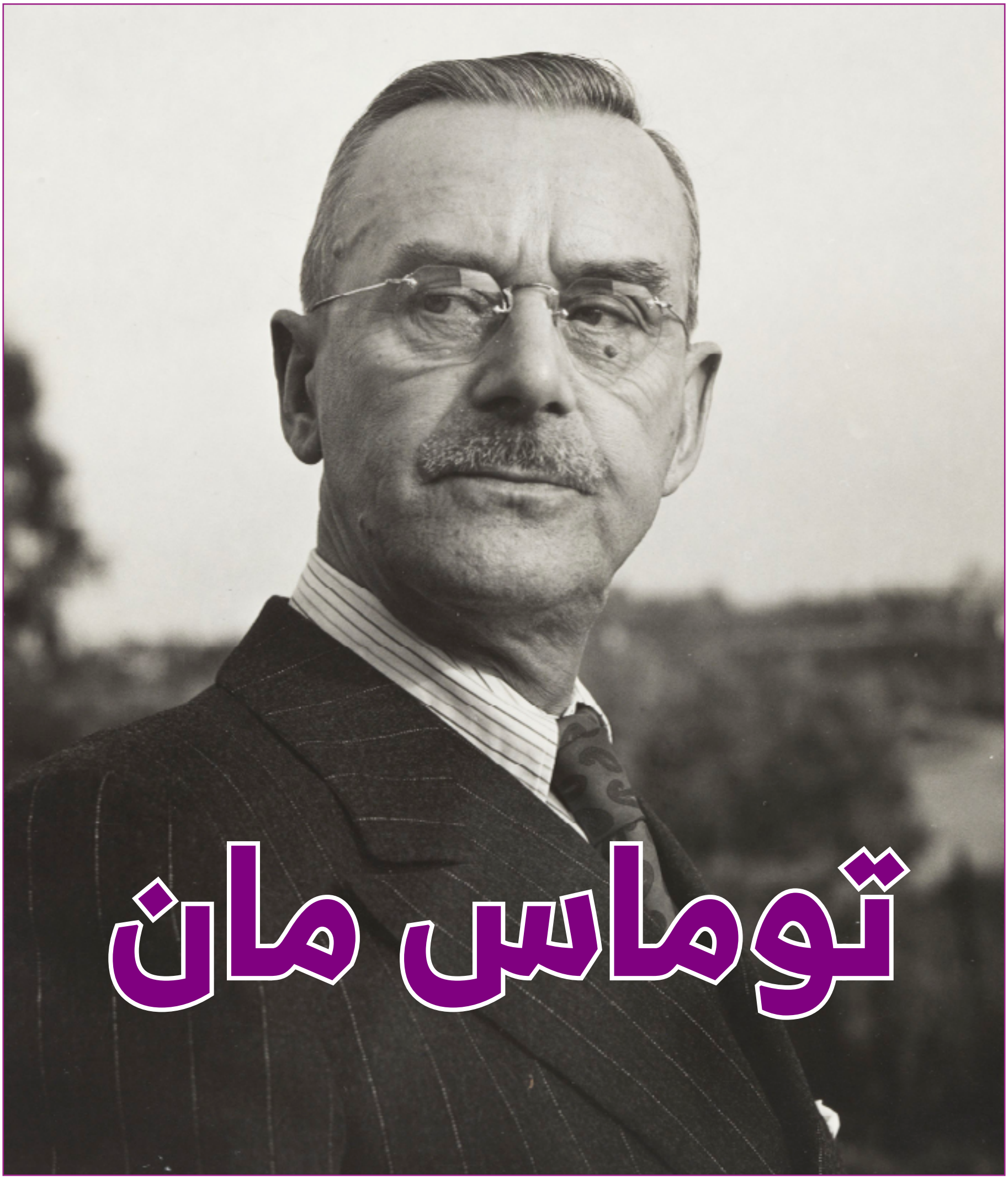

# توماس مان

# توماس مان روائي أحوال النفس الإنسانية المريضة

مشير باسيل عون

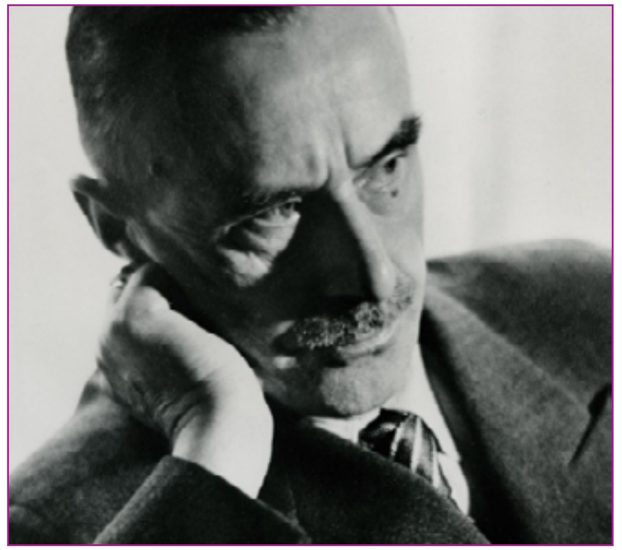

نشأ الكاتب الروائي توماس مان (١٨٧٥-١٩٥٥) في أسرة ألمانية بورجوازية مارست مهنة التجارة في مدينة لبك الشمالية المشهورة بتراثها المعماري والفني. استهل سيرته الأدبية عام ١٩٠١ برواية جريئة "بودنبروكس أو سقوط أسرة (، وتبعتها روايات أخر أشهرها "موت في البندقية". غير أن رائعته التي ذاع صيتها وأسهمت في نيله جائزة نوبل الأدبية عام ١٩٢٨، كانت "الجبل السحري من مفارقات آرائه السياسية أنه أثناء الحرب العالمية الأولى ناصر ألمانيا في صراعها المرير ومحنتها المصيرية، وأفصح عن تصوره في بحث وجيز عنوانه "استبصارات رجل لا سياسي، ولكنه ما لبث أن ناهض النازية مناهضة شرسة أفضت به إلى المنفى من بعد أن عمد الحزب النازي إلى حرق كتبه في الساحات العامة وتجريده من جنسيته الألمانية. أقام فترة في فرنسا، ومن ثم في سويسرا. وما لبث أن يمم شطر الولايات المتحدة الأميركية ليقيم فيها زمناً طويلاً حتى عودته إلى ألمانيا عام ١٩٥٢. إبان منفاه الأميركي هذا حبّر رباعيته الشهيرة "يوسف وإخوته"، وأنشأ رواية "الدكتور فاوستوس قبل عودته إلى وطنه، نشر في عام ١٩٥١ رواية "المصطفى".

### الطور الأول اللاعقلاني

توماس مان، شاعر التأمل في انحطاط المجتمع الإنساني في الحياة، وما من شفاء في الرواية، وما من شفاء في الأدب، مهما تألقت عبارات وصفه. المرض مصنع التسمم الخلاق. أما الحياة كلها فمصح العلاج لا موطن الإبراء. أما العبرة الوجودية الراقية فتملي علينا أن نتذكر أن الطب يتيح لنا أن نختبر في مرضنا قوة الإبداع. بالاستناد إلى الرؤية الميتافيزيائية الماورائية التي كانت الرومانسية الألمانية تذيعها، تنحصر مهمة الطبيب في الكشف عن ميزة إنسانية أساسية تجعلنا ندرك نعمة معطوبيتنا. كلما أدرك الإنسان قيمة هذه النعمة، كف عن التشبث بأوهام الشفاء الكياني الكامل، إذ إن الصحة دليل براءة العقم الذي يصيب وعي الإنسان.

### المرض مصدر الإلهام

يعد توماس مان من ألمع ورثة الرومانسية الألمانية التي أثرت وصف الوجود الإنساني منغمساً في معاناة الألم والشقاء والموت، وقد تجلت فيها عوارض العبقرية المبدعة. ثمة نظرية في الإبداع العبقري استمدها مان من تأمله في سيرة نيتشه الذاتية المبنية على اغتراف التآلق الإبداعي من صميم الإنهاك الجسدي والتحلل النفسي. لا شك في أن المصير المأسوي الذي نزل بالأدباء الرومانسيين الألمان كان يرمز، في وعي الأديب، إلى التحول الخطر الذي أصاب وطنه ألمانيا، وقد انتابته محنة اضطهاد المفكرين والفنانين وإرهاقهم بحتمية التاريخ، لذلك كان يعتقد حتى آخر رمق من حياته أن ألمانيا مصابة بلعنة دهرية جعلت عظماءها يعانون الغربة الكيانية والقلق الوجودي وانقصام الوعي الشقي، بيد أن اللعنة أنتجت لألمانيا تفوقها الماورائي والموسيقي والشعري، وأيضاً كارثتها النازية الكونية الانهيارية الأبوكاليبتية.

### بين سوداوية كافكا وتفاؤلية مان

كان الفيلسوف الماركسي الهنغاري غيورغ لوكاتش (١٨٨٥-١٩٧١)، وهو من أعظم الملمين بشخصية توماس مان وفكره، يردد أن ألمانيا لن تشفى من أسقامها إلا حين يقرأ الشاعر الألماني هلدرلين أعمال ماركس. فإذا بتوماس مان يجيبه بأنها تستطيع أن تبرأ من أمراضها حين يكب ماركس على قراءة قصائد هلدرلين. من الواضح أن هذه القراءة رمزية، إذ إنها تتجاوز التفاوت الزمني الظالم أفراداً متحررين من بيئات شتى جمعتهم أسقام الجسد الإنساني، وصيرت آمالهم في بوتقة المعاناة اليومية التي تستثيرها في وعيهم البقعة السوداء الرطبة المنبعثة من داء السل المنهك.

لا غرابة، والحال هذه، من أن تنشأ بين أهل "الجبل السحري" روابط الأخوية المصيرية التي تنعقد على رموز كلامية وشعائر مسلكية وطقوس حياتية. فالطاولات السبع الموضوعة أمام المرضى تجعلهم يتناذرون في حلقات منتظمة، ويتبادلون الكلمات المرمزة التي تشير من بعيد إلى أوضاعهم الصحية. من الواضح أن السردية الوصفية المقترنة بالأوضاع المرضية الطبية كانت تمهر أعمال توماس مان، وما "الجبل السحري" سوى النموذج المثالي الذي يكشف لنا هيمنة التصور الطبي العلاجي على مخيلة الكاتب، ذلك بأن تشخيص الطبيب يشبه في وجوه شتى معاينات الروائي التحليلية، إذ إنهما كليهما يغوصان في أعماق بنية الكائن الإنساني الجسدية والنفسية.

يبدو أن مان كان يصرح في أوج شهرته بأنه لو لم يمتهن الكتابة الروائية لكان سار على طريق الجراحة الطبية، بيد أن الطب لا يشفي في "الجبل السحري"، بل يشخص ويعالج ويترقب النتائج، ما من أحد خرج حياً من الساناتوريوم الذي أمضى فيه كاستور سبع سنوات يراقب تلاشي الجسد المسلول، لذلك ما من شفاء من بيئة يهودية. اللافت أنه لم يستطع أن يمضي إلى الاقتران الزوجي هذا إلا بعد أن اختبر المثلية الجنسية في سياق علاقة عابرة لم تلهمه المواظبة عليها والتمكث بها.

"دم فلسونغن رواية ظهرت في عام ١٩٠٥ تروي قصة سفاح القربى بين أخ وأخت توأمين يحييان في الرخاء المادي، ويستمتعان ببطالة الحياة التي أنعمت عليهما بالبحبوحة، فينصرفان إلى اللهو واختبار الفن الحر المطبوع بجمالية معبودهما قاغنر، بيد أن العمل الأدبي هذا أثار ضجة صاخبة، وأربك الأوساط الأدبية، وعكر صفو حياة الأديب الذي لم يكن يتقصد الإساءة. أما الضرر الأعظم فنجم عن الإشاعات التي ربطت الرواية بالعلاقة الحميمية التي انعقدت بين امرأة توماس مان كاتيا وشقيقها كلاوس. لم يتورع المجتمع الألماني في منشن عن اتهام الكاتب باقتضاح أسرار أسرته وأسرة قرينته كاتيا. في إثر ذلك كله، طلب توماس مان سحب الرواية من المجلة التي نشرت فيها، وقرر الاحتفاظ بها، على رغم هذه الفضيحة، اختبر الحياة الزوجية اختباراً خصباً فأنجبت له كاتيا ستة أولاد. أما الغريب فالعلاقة التي عادت فنشأت بين ابنته البكر إريكا وابنه كلاوس الذي دعي بهذا الاسم تيمناً بالخال المحبوب.

### "الجبل السحري "ورباط الوجود الإنهاكي

كتب توماس مان "الجبل السحري" من بعد أن عاينه طبيب مستشفى الأمراض الصدرية في مدينة دافوس بسويسرا، واكتشف أن رئتيه في حال سيئة تقتضي العلاج والإقامة الطويلة، ولكنه آثر العودة إلى منشن، وأكب على كتابة روايته التي تخيل فيها البطل هانس كاستورب يختبر المعاينة الطبية عينها ويقبل أن يقيم إقامة طويلة دامت سبع سنوات في المستشفى. على غرار "بودنبروكس" و"موت في البندقية"، تتصف هذه الرواية بالطابع المأتمي المأسوي الذي ينعى الحياة الإنسانية، ويتحسر على مصير الحضارة الغربية، ويحتفي بجنازة الإنسان الأخير، ذلك بأن أسلوب مان كان يملي عليه أن يحبس البشرية المتأبدة المنازعة في كهف الإقصاء ويغلق عليها في متاهات الانعزال، حارما إياها من قابليات الانتفاض والنهوض والتوبة. من جراء التقييد التعسفي هذا، ينصرف الناس المأسورون في رقعة الزمن المنكمش إلى تنظيم حياتهم تنظيماً مهجوساً بصغائر الأمور، مهووساً بمآلات المصير المحتوم، مختوماً بانغلاقية الآفاق المظلمة. وما صورة ساناتوريوم (مصح) دافوس سوى التعبير عن البيئة المغلقة التي حشر فيها الزمن الظالم أفراداً متحررين من بيئات شتى جمعتهم أسقام الجسد الإنساني، وصيرت آمالهم في بوتقة المعاناة اليومية التي تستثيرها في وعيهم البقعة السوداء الرطبة المنبعثة من داء السل المنهك.

في سياق مقارنة الحضارتين الأوروبية والأميركية كان حريصاً على التمييز بين الحضارة والثقافة. في نظره تنطوي الثقافة على معاني "الحدود والأسلوب والشكل والموقف والذائقة، إنها ضرب من ضروب تنظيم العالم، وليس مهماً أن يتحول ذلك كله إلى ضرب من المغامرة والتهكم والتوحش والدموية والرعب"، فضلاً عن ذلك، تحتوي الثقافة على "مكاشفات الآلهة والسحر ولواطية الغلمان والأضاحي الإنسانية وشعائر العربدة ومحاكم التفتيش وحرق الكتب". أما الحضارة "فعقل وأنوار وداعة وحشمة وارتياب وهداة وروح (Geist)".

وعليه تنبري الحضارة تعاند انفعالات الثقافة وأهواءها المضطربة وميولها النارية.

### "بودنبروكس أو سقوط أسرة"

كتب توماس مان الرواية الأولى هذه (١٩٠١) في ذهنية المتحدر من الشمال الألماني، من مدينة لبك الشهيرة. غير أنه كان مقيماً في الجنوب الألماني، في مدينة منشن التي كانت تحتضن أسرة كاتيا برنغسهايم الباريس من بطشه، لذلك لم تتضح معالم المنفى في وعي توماس مان إلا في الولايات المتحدة الأميركية التي يمم شطرها، وفي فأخذت تعيب عليه تحوله المفاجئ وتنتقد سرعة التغيير في مواقفه الأساسية، على غرار الهجاء الذي قذفه به برتولت برشت (١٨٩٨-١٩٥٦)، مع أن هذا الأخير كان يعشق "الجبل السحري"، على رغم نفوره الحاد من شخصية توماس مان. خلافة المخاصمة أن برشت لم يكن يرضى بالتماهي الذي أنشأه خصمه بين ألمانيا والنازية، وكان يعذر الجنود الألمان الذين اضطروا إلى خوض الحروب خوفاً من الإعدام العسكري، في حين أن صاحب "الجبل السحري" كان يعتقد أن ألمانيا لن تستعيد دعوتها الحضارية إلا إذا أفنى الحلفاء آلافاً من الجنود الألمان المؤلجين.

لم تكن كاليفورنيا أربعينيات القرن العشرين غريبة عن الأدب المهجري الألماني، إذ تكوكبت في أرجائها الشخصيات الأدبية الألمانية النازحة في حلقات أدبية رفيعة المستوى، كتلك التي كان يشرف عليها ويحيي نشاطها برتولت برشت، وهرمان بروخ (١٨٨٦-١٩٥١)، وفريتس فون أونرو (١٨٨٥-١٩٧٠)، وفيكي بـاوم (١٨٨٨-١٩٦٠)، وفرانتس فرفل (١٨٩٠-١٩٤٥)، وليون فويختفانغر (١٨٨٤-١٩٥٨).

في سياق المقارنة الحضارتين الأوروبية والأميركية كان حريصاً على التمييز بين الحضارة والثقافة. في نظره تنطوي الثقافة على معاني "الحدود والأسلوب والشكل والموقف والذائقة، إنها ضرب من ضروب تنظيم العالم، وليس مهماً أن يتحول ذلك كله إلى ضرب من المغامرة والتهكم والتوحش والدموية والرعب"، فضلاً عن ذلك، تحتوي الثقافة على "مكاشفات الآلهة والسحر ولواطية الغلمان والأضاحي الإنسانية وشعائر العربدة ومحاكم التفتيش وحرق الكتب". أما الحضارة "فعقل وأنوار وداعة وحشمة وارتياب وهداة وروح (Geist)".

وعليه تنبري الحضارة تعاند انفعالات الثقافة وأهوائها المضطربة وميولها النارية.



# توماس مان: الموت سبب عظيم للحياة

لطفية الدليمي

في سنوات الحروب والكتب نادرة وثمينة كانت رواية هيرمان هيسّة (لعبة الكريات الزجاجية) ورواية توماس مان (الموت في البندقية) مخفيتين في زاوية غير مرئية في مكتبتي، وهما الكتابان اللذان بخلت بإعارتهما إلى الأصدقاء استثناء من الكتب الاخرى، لكن عتمة المخبأ التي أبعدت عنهما أيدي خاطفي الكتب من زوار مكتبتي -لم تنقذ الكتابين من نهم كائنات أخرى لم أعهد فيها شغفا بالقراءة أوعشقا لنوع محدد من الكتب، ولم يخيل إلي في يوم ما أن تختار الفئران عمليّ من روائع الأدب الألماني لتلتهمهما، ويبدو أن الفئران الذواقة توصلت بطريقة ما إلى اختيار بالغ الذكاء فأقامت وليمة لهضم (لعبة الكريات الزجاجية) التي عُدّت لدى الكثير من القراء من أصعب الأعمال الروائية هضما، ووجدت فيها هي ورواية (الموت في البندقية) متعة ميزتها عن الكتب الأخرى وقرضت أطراف الكتابين بشكل متدرج حتى منتصف الصفحات، في وليمة ليل عندما خلا لها الجو اثناء مغادرتنا البيت أثناء قصف قوات التحالف لبغداد، إذ تهشم زجاج النوافذ جراء الانفجارات فتسللت القطط والفيران في غيابنا من الحديقة إلى المكتبة وعبثت بماشاء لها العبث.

تساءلت حينها: هل شاءت الفئران نقض مفهوم توماس مان عن الجمال الذي عدّه الهدف الأسمى للعيش؟ أم تراها انتقدت وحشية الحضارات التي تقتل البشر لتداري انهيارها؟ لا أحد يعلم كيف تفكر فئران المكتبات ولا نعلم كيف تختار مذاقات الكتب- تحت جحيم القصف - بهذه الدقة التي تشكك في عشوائية اختيارها..

وبقيت حادثة قضم الفئران لهذين الكتابين مثار تندر الأصدقاء وهم يرون الكتابين المنهوشين وقد ضاعت ملامح كثير من شخصيات الروايتين وتحولتا إلى عمليْن مختلفيْن يمكن أن يكونا مشروعيْن لكتابين مغايريْن لاعلاقة لهما بالروايتين الاصليتين، حدث ذلك بمحض مصادفة عشوائية حكمتها ذائقة الفئران (المثقفة) التي أثبتت لنا أنها تحسن اختيار الأعمال المهمة.

## 2

صدّر هيرمان هيسّه روايته الكبيرة بقصيدة حملت عنوان (الكريات الزجاجية):

(وتبدأ في وجداني لعبةُ أفكار، اهتممت بها منذ سنين، اسمُها "لعبة الكريات الزجاجية" هيكلها الموسيقى، وأساسها التأمّ).

بنى هيرمان هيسه روايته العظيمة بناء سيمفونيا في قلعة كاستاليا قبل نظيره في الأدب المعاصر، ويمكن أن نعدها كتابا في الفلسفة وتاريخ الثقافة والتاريخ والحكمة وأولا وقبل كل شيء هي كتاب عن عظمة الموسيقى والعصر الكلاسيكي برمته، تناول فيه الكاتب ثقافة العصر بالنقد الدقيق والتقييم، و شرع في كتابتها قبل صعود النازية ١٩٣١ وأنهاها ١٩٤٢، ولم تنشر في المانيا إلا سنة ١٩٤٦.

يقول على لسان إحدى شخصياته في رواية الكريات الزجاجية:

(لو أخذنا الاستعداد المطمئن للموت، كما في أعمال باخ، فإننا نجد فيها دائمًا العناد والشجاعة أمام الموت، ونجد فيها الفروسية، ونغمة من ضحك فوق مستوى البشر، وإشراقا خالدًا لا يموت. هذا ما ينبغي أن ينبض في لعبنا بالكريات، وينبض في حياتنا كلها، وينبض في ما نفعل وفي ما نعانيه).

## 3

تنعى رواية (الموت في البندقية) لتوماس مان عصراً كاملاً موشكا على الغروب وتقدم لعهد أوروبي جديد هو عصر الآلة الذي طبع الحياة المعاصرة بلمسته المعدنية الباردة سواء في الفن والأدب والفكر والاقتصاد والسياسة، وناقش توماس مان مفهوم الفن والجمال وعبادة بعض المثقفين البطرين لهما، بطله (أشنباخ) الذي يعاني من عقم إبداعي شل قدرته على التأليف الموسيقي، يبدو اختياره للعيش في مدينة (البندقية) التي ضربها الطاعون، تجسيدا حيا لطبقة اوروبية كاملة متهاوية كانت تعتبر الجمال قيمة مقدسة لايمكن المساومة عليها، وسط عالم يتداعى بأفكاره ومفاهيمه، وعندئذ يتحول الموت إلى حل وحيد حين تتغلب الأيروسية على نزعات الروح وانسحارها بالجمال الفاني الذي يكابد البشر من أجل تخليده وبقائه..

يقول توماس مان على لسان بطلته روزالي وهي تخاطب ابنتها في رواية(المخدوعة) في تمجيده الفلسفي للموت: (لا تنعتي الطبيعة بالخداع والقسوة. سأذهب الآن رغما عني بعيداً عنكم وعن الحياة وربيعها. ولكن كيف سيكون الربيع بلا الموت؟ إن الموت سبب عظيم للحياة!).

لقد بعثت لنا الفئران برسالة ساخرة من حيرتنا أمام الموت ومحاولة فلسفته وتفسيره و اختصرت لنا الفكرة: أن نتقبل الحياة والموت ونتمتع بالجمال والوجود دون هوس لتحليل معضلة الموت أو البحث عن مضاداته في فكرة الخلود والشباب الخالد التي استعصت على بطل الرواية عندما جف نبع الابداع لديه بهيمنة عصر الصناعة والآلة وشيوع النزعات العدمية بعد الحرب العالمية الأولى..

في الحياة، وما من شفاء في الرواية، وما من شفاء في الأدب، مهما تألقت عبارات وصفه. المرض مصنع التسمم الخلاق. أما الحياة كلها فمصح العلاج لا موطن الإبراء. أما العبرة الوجودية الراقية فتملي علينا أن نتذكر أن الطب يتيح لنا أن نختبر في مرضنا قوة الإبداع. بالاستناد إلى الرؤية الميتافيزيائية الماورائية التي كانت الرومانسية الألمانية تذيعها، تنحصر مهمة الطبيب في الكشف عن ميزة إنسانية أساسية تجعلنا ندرك نعمة معطوبيتنا. كلما أدرك الإنسان قيمة هذه النعمة، كف عن التشبث بأوهام الشفاء الكياني الكامل، إذ إن الصحة دليل براءة العقم الذي يصيب وعي الإنسان.

### المرض مصدر الإلهام

يعد توماس مان من ألمع ورثة الرومانسية الألمانية التي أثرت وصف الوجود الإنساني منغمساً في معاناة الألم والشقاء والموت، وقد تجلت فيها عوارض العبقرية المبدعة. ثمة نظرية في الإبداع العبقري استمدها مان من تأمله في سيرة نيتشه الذاتية المبنية على اغتراف التآلق الإبداعي من صميم الإنهاك الجسدي والتحلل النفسي. لا شك في أن المصير المأسوي الذي نزل بالأدباء الرومانسيين الألمان كان يرمز، في وعي الأديب، إلى التحول الخطر الذي أصاب وطنه ألمانيا، وقد انتابته محنة اضطهاد المفكرين والفنانين وإرهاقهم بحتمية التاريخ، لذلك كان يعتقد حتى آخر رمق من حياته أن ألمانيا مصابة بلعنة دهرية جعلت عظماءها يعانون الغربة الكيانية والقلق الوجودي وانقصام الوعي الشقي، بيد أن اللعنة أنتجت لألمانيا تفوقها الماورائي والموسيقي والشعري، وأيضاً كارثتها النازية الكونية الانهيارية الأبوكاليبتية.

### بين سوداوية كافكا وتفاؤلية مان

كان الفيلسوف الماركسي الهنغاري غيورغ لوكاتش (١٨٨٥-١٩٧١)، وهو من أعظم الملمين بشخصية توماس مان وفكره، يردد أن ألمانيا لن تشفى من أسقامها إلا حين يقرأ الشاعر الألماني هلدرلين أعمال ماركس. فإذا بتوماس مان يجيبه بأنها تستطيع أن تبرأ من أمراضها حين يكب ماركس على قراءة قصائد هلدرلين. من الواضح أن هذه القراءة رمزية، إذ إنها تتجاوز التفاوت الزمني الظالم أفراداً متحررين من بيئات شتى جمعتهم أسقام الجسد الإنساني، وصيرت آمالهم في بوتقة المعاناة اليومية التي تستثيرها في وعيهم البقعة السوداء الرطبة المنبعثة من داء السل المنهك.

لا غرابة، والحال هذه، من أن تنشأ بين أهل "الجبل السحري" روابط الأخوية المصيرية التي تنعقد على رموز كلامية وشعائر مسلكية وطقوس حياتية. فالطاولات السبع الموضوعة أمام المرضى تجعلهم يتناذرون في حلقات منتظمة، ويتبادلون الكلمات المرمزة التي تشير من بعيد إلى أوضاعهم الصحية. من الواضح أن السردية الوصفية المقترنة بالأوضاع المرضية الطبية كانت تمهر أعمال توماس مان، وما "الجبل السحري" سوى النموذج المثالي الذي يكشف لنا هيمنة التصور الطبي العلاجي على مخيلة الكاتب، ذلك بأن تشخيص الطبيب يشبه في وجوه شتى معاينات الروائي التحليلية، إذ إنهما كليهما يغوصان في أعماق بنية الكائن الإنساني الجسدية والنفسية.

يبدو أن مان كان يصرح في أوج شهرته بأنه لو لم يمتهن الكتابة الروائية لكان سار على طريق الجراحة الطبية، بيد أن الطب لا يشفي في "الجبل السحري"، بل يشخص ويعالج ويترقب النتائج، ما من أحد خرج حياً من الساناتوريوم الذي أمضى فيه كاستور سبع سنوات يراقب تلاشي الجسد المسلول، لذلك ما من شفاء

(إبراهيم) والد جده وسواهما، من غير أن يستجلي ملامح هيئتهم الحاسمة وسمات هويتهم النهائية. إذا كان يوسف قد قبع في البئر ثلاثة أيام، فاختبار الاختفاء الوجودي إنما يرمز إلى انغلال المسيح في القبر ثلاثة أيام قبل أن يقيمه الله من بين الأموات. المغزى الأعمق يتجلى في قدرة الأصل على تصوير المستقبل، لا على الإمساك بالماضي. فالأجداد صورة المستقبل الذي لم يتحقق.

### الجمال نقيض الأيديولوجيا: نيتشه في عيني مان

لا بد من استجلاء المساهمة الفلسفية اللافتة التي جعلت مان يعتني بفيلسوف العدمية الخلاقة نيتشه، وقد عاين فيه أفضل من جمع في أسلوبه الأدبي البليغ بين القدرة على تحليل الواقع، وفن التحليق الخيالي التجاوزي. في الكتاب الذي أبان فيه مان طبيعة الجمع الحصيف هذا "فلسفة نيتشه في ضوء اختبارنا، أعلن من دون تردد أنه قريب من فكر نيتشه وأسلوبه، ذلك بأن فكرة العظمة النيتشوية المتجلية في الكيان وفي الوجود وفي الحياة وفي الفكر والأسلوب والتعبير استهوته وأثرت في ولاءاته القومية ومفاضلاته الأدبية. كان همه الأول أن يحرر نيتشه من الاستغلال النازي المقيت. فإذا به يعلن جهاراً في كتابه "ليس نيتشه من صنع الفاشية، بل الفاشية صنعت نيتشه"، فضلاً عن ذلك، أخذ يبرز عظمة هذا الفيلسوف الذي ناصر قضية عظمة الإنسان المتجاوز ذاته، وأسند إلى الفن أنبل الرسالات: روحنة الأمراض التي يبتلى بها الإنسان. الفن يروحن معطوبيتنا الوجودية. ومن ثم، يعتلن الوجود الإنساني كله وجوداً مسرحياً مختوماً بغنية التعبير التجاوزي.

في جميع الأحوال، ناصر توماس مان أخلاقيات القراءة الفلسفية المسؤولة التي تصون مقاصد الكاتب من غير أن تفرض عليه آراءها الاستقطابية: "تعلموا أن تقرؤوني قراءة سليمة!". قالها نيتشه في كتاب "الفجر"، وكررها مان في كتابه حتى يبين لقرائه أن بعضاً من التهكم قادر على أن يهز المدارك هزاً يجعلها تستشف ما لا تستطيع العين أن تراه من معاني الحياة الغائرة في جوف السر. إنه البعد الجمالي الذي يعارض كل قراءة أيديولوجية فاشية تفرض على نصوص نيتشه قولاً اعتباطياً في نصرة الاستبداد الإمبريالي.

### الإشعاع الأدبي الفريد

من أفضل الأوصاف التي نعت بها توماس مان الساحر البديع الذي طوع الواقع بريشته فرسمه رسماً يوحي بتحوله إلى صورة بهية من صور الاستهواض الأخلاقي والأدبي. جاء هذا الوصف في رواية الناقد الأدبي الروائي الإيرلندي كولم توبين الصادرة حديثاً الحقيقة أن الألمان استقر في وعيهم أن أديبهم الروائي الشهير، خلافاً لأخيه هاينريش، اعتصم بموقف البورجوازي المتمسك بالثقافة الكلاسيكية، الحريص على المأثور التقليدي المتواتر في التعبير الراقي، المستنكف من العمل السياسي الملطخ بالمساومة الرخيصة. وعلاوة على ذلك، عاين فيه بعضهم مثال المتزهد المترفع المنصرف إلى انتقاد المجتمع والاستهزاء بصغائره وتفاهاته.

تحتشد في نصوصه الاستطرادات الثقافية الموسوعية المسرفة في طلب دقائق المعرفة، وتهيمن على أسلوبه نزعة الإتقان التعبيري والمثانة السبكية والصفاء البياني. مالت إلى أدبه أوساط ثقافية شتى من جراء بحثها عن أسلوب في الكتابة يتمرد على الرتابة الوصفية من غير أن يسقط في الهيجان الوجداني الذي تحتفي به الرواية الحديثة. ومع ذلك، ما برح النقاد يعيبون عليه سمات التلبث العنيد بالأسلوبية الجرمانية المرهقة تتجلى في الاستطرادات العلمية المربكة، والمباحثات الفكرية المطولة، والتناولات الميتافيزيائية الشاقة. على رغم الانتقادات الصائبة هذه، فلا بد من الإقرار بأن جرأته في خوض النقاش الوجودي جعلته يعالج موضوعات الحياة المعاصرة، ومنها علاقة الجسد بالروح، والصحة بالمرض، والمرض الجسدي بالمرض النفسي، والتوهمات التخيلية في انفلاتات الوعي الشردية، واعتلانات اللاوعي المباغتة، وخلفيات الإخصاء والخضوع الغريزية، واستقصاءات الإبداع التحليلية النفسية. في سياق آخر، ذهب بعضهم الآخر إلى استثمار العزوف المبدئي في مواقفه السياسية من أجل استخراج تصور ثقافي يناهض السياسة بحد ذاتها، ويعطل مقام الدولة، ويبطل كل مسعى عقائدي، مهما تنوعت مضامينه وأساليبه.

٠ عن الانديندنت

# توماس مان.. ضياع الحلم

علي حسين

عام ١٩٣٣ كان في رحلة خارج البلاد، وقد استقر رأيه بأنه لايستطيع العودة الى بلاده، فقد أصبح هتلر مستشاراً لألمانيا، قبل هذا التاريخ بثلاثة عشر عاماً كان هتلر قرر أن يغير اسم حزب العمال الألماني الى حزب العمال الألماني الديمقراطي الاشتراكي، معلنا صعود تيار القومية، وقبل هذا التاريخ كان توماس مان قد أصدر روايته الشهيرة " آل بودنبروك" وفيها يتنبأ بانهيار المجتمع الألماني.. كان توماس مان قد هاجم صعود هتلر وحزبه من خلال الإنتخابات، فقد كان يرى أن هناك اشتراكية عسكرية في الأفق، كتب في إحدى الصحف: " بنفاق الجماهير.. بالكذب على الخصوم.. بالألعاب و الهدايا.. بالتهديدات والضربات.. وقبل كل شيء بالأموال. المال هو الذي ينظم العملية لصالح من يملكونه، وتصبح لعبة الانتخابات سابقة الإعداد، وتقدم على أنها تقرير مصير ".

كانت رواية توماس مان، تقدم حكاية عائلة باعتبارها قصة المانيا و الصراع الدائر فيها بين المبادئ والمصالح، وتوماس مان يدرك أن السلطة ستصل إلى ايدي مجموعة مغرورة من المغامرين والجنرالات المتسللين والقادة المزيفين، يعتقد كما كتب في العام ١٩٢٢ إن أحد هذه النماذج ظهر في شخص ادولف هتلر، كان النازيون كلهم تصميم على إخضاع الثقافة لسيطرتهم، وهو الأمر الذي بدأوا بتنفيذه بالفعل بعد صعود هتلر للسلطة عام ١٩٣٣، حيث أصبح منظراً مألوفاً حرق الكتب وطرد أساتذة الجامعة، ففي شهر واحد طرد ألف وسبعمائة من اساتذة الجامعات بحجة إنهم يساريون، فيما قرر عدد كبير من الأدباء والمفكرين الهجرة خارج ألمانيا هربا من مضايقات كتائب الشباب بقمصانهم البنية وأشرطة الأذرع المرسوم عليها الصليب المعقوف.

بدأت مخاوف توماس مان تزداد بخصوص عدد من الدفاتر التي خبّأها في درج مكتبه في ميونخ. كانت الدفاتر تحوي يومياته التي يخشى عليها أن تقع بيد النازيين. وبعد ثلاثة أسابيع من القلق بعث توماس مان مفاتيح الأدراج لأبنه غولو الذي بقي في ميونخ، طالبا منه أن يقوم بشحن تلك الدفاتر بعد ان يضعها في حقيبة محكمة الإغلاق ويرسلها عن طريق القطار يكتب لأبنه: " إنني واثق من حسن تصرفك، وبأنك ستكون حريصاً على سرية الأمر ". في السابع عشر من آذار عام ١٩٣٣، يرسل الأبن الحقيبة الى محطة القطار بيد أحد معاونيه "هانز هولستنر" الذي اتضح فيما بعد إنه مخبر نازي، والغريب إنه ذهب بها الى محطة القطار بعد أن بعث تقريراً الى الشرطة السياسية، وفي محطة القطار كانت هناك تعليمات من الشرطة الحدودية بتفتيش الحقيبة، فقد كان يعتقد أن بها منشورات سياسية، أما الدفاتر فقد نظر إليها بوصفها مسودة لرواية، توماس مان يتلقى في ذلك الوقت خبراً جديدا، الشرطة السرية تستعد لتفتيش منزله. في الثاني من أيار وبعد انتظار طويل، جاء الخبر القاطع بأن الحقيبة موجودة في الأراضي السويسرية يكتب توماس مان: " راحة عميقة وقوية أن تشعر بأنك نجوت من خطر محدق، يصعب وصفه، ولعل مثيله لم يوجد من قبل ".

كان حامل جائزة نوبل – حصل توماس مان على الجائزة عام ١٩٢٩ -، يعد نفسه المانيا يعيش في الخارج، لكنه بين الحين والاخر يطلق تصريحات ضد نظام الحكم، وصف النازيين منذ وقت مبكر بانهم: " أعداء الفكر ولا يهمهم أن يعلموا أو يتعايشوا مع أية فكرة، بل يفضلون أن يروا للجماهير سادرة في الغباء، إنهم يمرغون بالتراب ويدوسون على كل ما نعرفه مما له صلة بالحقيقة والكرامة "، لكن برغم ذلك فان كتبه ماتزال تباع في المكتبات الألمانية، كانت ثمة مجموعة من نظام الحكم تريد ترك توماس مان وشأنه، إلا أن غوبلز ظل يثير حفيظة الفوهرر ضد الكاتب " المشاغب "، وبعد محاولات وخلافات بين أعضاء الحزب النازي ينتصر الجناح المتشدد، بعد سنوات وفي العام ١٩٣٨ تتخذ السلطات الالمانية قراراً بحرق مؤلفات توماس مان ومنعها من التداول.

بدأ توماس مان حياته قومياً متحمساً للثقافة والفلسفة الألمانيتين المحافظتين، لكن نزعته الإنسانية جعلته فيما بعد يتخلى عن المعتقدات القومية المتعصبة.. ولد في مقاطعة لوبيك بألمانيا عام ١٨٧٥ لأب تاجر حبوب غنيا وعمدة للمدينة، ولأمّ أصولها من اميركا الجنوبية كانت مولعة بقراءة الروايات الرومانسية، عندما بلغ السادسة عشرة من عمره توفي والده، فقررت العائلة المكونة من ستة إخوة وأخوات، فضلا عن الأمّ الانتقال الى ميونيخ، حيث اشتغل في شركة للتأمين، وبعد أن أمضى فترة في الجامعة توفرت لدية قناعة بترك العمل في شركة التأمين والتفرغ للأدب، فاصدر عام ١٨٩٨ أول مجموعة قصصية له بعنوان "قصص من الحياة" وكانت إحدى قصص المجموعة تمهد لروايته الكبيرة " آل بودنبروك " التي صدرت بعد عامين، كان توماس مان يريد أن يكتب رواية عن عائلته التي تدهورت أحوالها بعد رحيل الأب، حيث ستدور الأحداث عن الصبي "هانو" ابن العائلة البرجوازية اللامعة "بودنبروك"، إن هذا الصبي كما يخبرنا توماس مان لم يخلق لهذه الحياة، هانو سيكون محور الرواية والأشخاص الآخرين: العائلة، الأقارب، الأصدقاء سيكونون الخلفية والظلال، هانو يشكل نهاية عائلة، عائلة تحتضر، تمحى من الأرض، إنه لشيء محزن بالنسبة للذي عاصر ازدهار هذه العائلة وتفتحها، ومصير الصبي هانو هو مصير توماس مان وهو يشاهد ألمانيا تنهار، سوف لن يروي توماس مان قصة "هانو "، بل سيبدأ قبلها بكثير، سينقب في التاريخ، سيكون السؤال: لماذا يرفض هانو فكرة الاستمرار في الحياة؟، لقد وضع توماس مان لائحة بأسماء الشخصيات، أما صفاتها فسيأخذها من سجلات عائلته، إنه يؤلف رواية أشبه بالتاريخ، صورة تولستوي يضعها على المكتب يؤطرها بالزهور و الى جانبها نسخة من "الحرب والسلم"، كان قد أهداها له صديقه هرمان هيسه.

يحوّل غرفته البسيطة في ميونخ الى أرشيف لتاريخ ألمانيا، إنه يريد معرفة كل شيء، سمع مثل صديقه شنيجلر بموت نيتشه، كانت الرواية في طريقها الى النهاية، لكن أسرة "بودنبروك" لاتريد أن تنهار، إنها تقاوم مصيرها، لكنها تشيخ ببطء، كل مقومات اليأس موجودة. عام ١٩٠٠ يكتب الصفحات الأخيرة، يقوم بحزمها وإرسالها الى إحدى دور النشر، في هذه الأثناء يتم استدعاؤه الى الخدمة العسكرية، انه لايحب طريقة الجيش في الحياة، المارشات العسكرية تثير فيه الاشمئزاز، يصاب بالمرض، أشبه بكآبة تخللتها حالات من الفرح حين أرسل إليه الناشر رسالة يقول فيها إن الرواية جميلة جدا لكنها طويلة، ويقترح الناشر اختصارها الى النصف، اقتراح مرفوض فهو أراد أن يكتب تاريخا كاملا لايمكن اختزاله، قد يكون الناشر محقاً لكنه لن يرضخ لشروطه، لايمكن الاستغناء عن أية صفحة من صفحات الرواية، ويعفى توماس مان من الجيش بسبب مرضه، الناشر يرضخ أمام إصرار المؤلف لتصدر "آل بودنبروك" عام ١٩٠١ مع عنوان فرعي "سقوط عائلة"، ويقرأها الشاعر ريلكه فيكتب في إحدى الصحف: "هذه الرواية ستعيش مع الزمن"، خلال الحرب العالمية الأولى ستكون على قائمة الأفضل مبيعاً لتصل مبيعاتها الى ثلاثة ملايين، إنها المانيا التي على وشك السقوط، يكتب توماس مان بعد سنوات ليجيب على سؤال طرحه عليه شبنجلر حول نبوءته بتفسخ العالم القديم كما جاء في آل بودنبروك: "لم يخطر لي بأي حال، إني في هذا الكتاب قد أعطيت شيئا هاما يتخطى حدود الفن وحدود السيرة الذاتية، وإني قد قدمت صورة للحياة في هذه المدينة في القرن التاسع عشر، أي شيء من التاريخ، ولم يخطر لي أن إنجاز هذا العمل يعود الى ما يتضمنه في نفسي الآن من التاريخ الذهني للبرجوازية الألمانية على وجه الإطلاق، شيء ثالث لم أتخيله في أية صورة من الصور، وهو إن الاهتمام بهذا الكتاب سيتجاوز موضوعياً وذهنياً حدود ألمانيا وإن قصة انحلال عائلة قد يثير أشجان البرجوازية وإنها قد تتعرف على نفسها في هذا الكتاب من جديد، وبالاختصار لم أكن حرين وضعت هذا الكتاب الالماني من حيث الشكل والموضوع إني ربما صوّرت شيئاً من القصة النفسية للبرجوازية الأوروبية".

في يومياته التي نشرت بعد وفاته يعود توماس مان دائما الى الحديث عن "آل بودنبروك". في آذار عام ١٩٠٠ يكتب: " أمس فكرت في مصير روايتي آل بودنبروك، مثلما فكرت في مصير ألمانيا التي يريد لها البعض أن تذهب الى الهاوية، أريد أن أجعل من هذه الرواية عالما كاملا "، كان توماس مان يحرص على أن يقرأ أفراد عائلته كتاباته قبل نشرها، قالت له والدته بعد أن انتهت من قراءة "آل بودنبروك ": "حذاري إنك تثير من حولك الغبار "، كان توماس مان يريد أن يندب حظ ألمانيا التي خسرت الحرب. كتب عام ١٩١٨ ماذا يردون أن يحرموننا من خبرة غوته ولوثر وبسمارك، لنكيف أنفسنا للديمقراطية؟ لكن توماس مان لن يلبث أن يتخلى عن نعرته القومية ويتغنى بنعمة الديمقراطية، عام ١٩٣٦ يكتب اندريه جيد: " في حين يعمل ويناضل خيرة المثقفين الفرنسيين الى جانب فرنسا، فان خيرة مثقفي المانيا يقفون ضد تلك العناصر الشوفينية التي تزج بالمانيا في اتون الحرب ". في يومياته يكتب توماس مان عام ١٩٣٥: " مع كل الاجراءات النازية الشمولية، فانهم (النازيين) لايستطيعون تغيير قناعاتي ".

في عام ١٩٣٤ ينشر مقالا عن الروح الجديدة البغيضة التي انشرت بين الألمان بسبب الحزب النازي، في تلك الايام أصدر هتلر تعليمات جديدة: " إن حق النقد يفترض أن يقترن بقول الحقيقة " لاشك إن الحقيقة التي يقصدها هي غير الحقيقة التي يبحث عنها توماس مان، لقد رفع غوبلز شعار " إن من لايكذب الآن ليس سوى وغد ".

في ايطاليا كان موسوليني يكره توماس مان، ونراه يعلق على أحدث كتاب صدر للفيلسوف الايطالي بندتو كروتشه، قائلاً: " إنه أهلٌ لكتابة مثل هذا الكتاب، لكن ما أثار غضبي هو انه صدر باهداء لتوماس مان". وعلى مائدة الطعام قال هتلر للحاكم الايطالي موسوليني: " إن توماس مان لايمثل ألمانيا بأي شكل من الأشكال، لم يأت بشيء يخوله بان يدعي ذلك".

في التاسع عشر من نيسان عام ١٩٣٣، تنشر الصحف الألمانية بياناً ضد توماس مان بعنوان " احتجاج من ميونخ، مدينة فاجنر " كان مذيلا بالعديد من التواقيع، يكتب توماس مان رداً على البيان: " كانت عودة البربرية في الأزمنة القديمة تُفرض من قبل شعوب بدائية من الخارج، أما الآن فهي تفرض عمداً (كثورة) بمعونة شباب مكيفين للتفكير بسذاجة، إنهم يختزلون كل المصائب الى بعبع العنصرية والقومية ". في الثلاثين من نيسان عام ١٩٣٣ تعرّض منزل توماس مان للتفتيش بحجة البحث عن السلاح، وتصادر سيارته الشخصية مع بعض المقتنيات. في اليوم التالي يقرر هتلر طرد توماس مان من الإكاديمية الألمانية واعتباره كاتباً فاشلاً حيث يلقي خطاباً حول الثقافة، يهاجم فيه الكتاب الألمان الذين هربوا من ساحة المعركة. في اليوم التالي يكتب توماس مان مقالاً يصف به هتلر بانه نموذج لإنسان من الطبقة الجاهلة: " لايملك سوى ثقافة محدودة، إنه ظاهرة تثير الاستغراب. إن الأفكار التي يطرحها بطريقة بائسة ومثيرة للشفقة، ومكررة على الدوام، لاتتجاوز مستوى طالب ثانوية محدود الأفق ".

عندما بلغ توماس مان الثالثة عشرة من عمره عثر في مكتبة والده على نسخة قديمة من كتاب فاوست المطبوع عام ١٥٨٧، سحرته الحكاية، بعدها قرأ ما كتبه غوته، فقرر أن يؤلف رواية يعطي فيها وجهة نظر إنسان القرن العشرين لشخصية فاوست، ستكون الرواية بعنوان"دكتور فاوستوس"تصدر عام ١٩٤٧، كان يعيش منفياً في اميركا التي وصل إليها وأراد أن يقدم للعالم شهادته عما جرى خلال الحربين العالميتين اللتين حصدتا أرواح الملايين، يكتب توماس مان في يومياته: "في هذه الرواية أريد أن أقدم بطلا من زماننا، شخصية تراجيدية، مأساة متنقلة وقوة الشر في عينيه، وقد باتت تحمل آلام العصر وشروره"لكننا في رواية توماس مان لانعثر على فاوست وإنما على خليفة له اسمه"ادريان ليفركون"الذي هو خليط بين شخصية فاوست في الحكاية الشعبية وشخصية الفيلسوف نيتشه الذي كان له الاثر الكبير على توماس مان الروائي والاديب، تتناول الرواية الفترة ما بين عام ١٨٨٥ السنة التي نشر فيها كتاب نيتشه الشهير هكذا تكلم زرادشت، وتنتهي عام ١٩٤٥ حيث توقفت الحرب العالمية الثانية بانهدار ألمانيا، وكان توماس مان يعتقد إن هذه الفترة كان فيها المجتمع الألماني مريضا، خسرت فيها المانيا حربين عالميتين، ويشبه توماس مان ما حصل في ألمانيا بما حدث لبطل روايته الموسيقار أدريان ليفركون، إذ أغواه الشيطان ليأخذه الى طريق الهلاك مثلما جر حكام المانيا البلاد الى الموت والدمار والحروب، حيث نجد الراوي وهو أستاذ متقاعد معجب الى حد التقديس بشخصية الموسيقي أدريان ليفركون، وهو نوع من عبادة الشخصية الألمانية، فادريان برغم تفوقه العقلي يقع ضحية الشيطان الذي يمثل الشر، إنه الدكتور فاوستوس وهو يمثل الشطر المظلم الذي يقول عنه توماس مان إنه لايد منه"فالعبقرية الخلاقة لا يمكنها أبداً أن تزهر من دون تواطؤ جهنم معها، فالخير لا يصنع إبداعاً".

ونجد توماس مان في الرواية يخاطب معلمه نيتشه في سطور معبرة تلخص لنا فكرة الرواية: إننا لانخلق من العدم شيئاً جديداً، فذلك من شأن الآخرين، إننا نفرّج عن أنفسنا فقط، ونطلق الحرية. إننا ندع الشعور بوطأة النفس والشكوك وسواها تذهب الى الشيطان، فعليك أنت أن تمهد السبيل، فاضرب في الأرض وشق الطريق الى المستقبل، فإذا الصبية يتبعوك، فهم ليسوا بحاجة الى الجنون ليفعلوا ذلك، فجنونك أنت كفاهم شر الجنون، فعلى جنونك يعيشون أصحاء، وعلى أكتافهم تعيش أنت صحيحاً، أفهمت،فانك لن تشق لنفسك الطريق وسط صعاب الزمن، بل إنك تشق الطريق وسط الزمان نفسه".





# إخوة يوسف كما رواها توماس مان

ترجمة / أحمد فاضل

أي شخص يحب القراءة ولديه طموحات أدبية ما أن يقرأ للكاتب الألماني توماس مان حتى يدرك أنه أمام كاتب رائع ليس من السهولة فهمه لعمق كتاباته ولمسحتها الفلسفية التي تغلب معظمها كما في " الجبل السحري " أو " الموت في البندقية ".

التي من المرجح أنه كتبهما في المصحة السويسرية التي كان يعالج فيها من السل الذي أصابه، وأظنني وجدت في قراءة رائعته " إخوة يوسف " التي كتبها بـ ١٢٠٧ صفحات لغة لا تخلو من تعقيد لكنها غنية بأحداثها، قراءتي لها كانت منذ خمسة عشر عاماً أو نحو ذلك مع أنني لم أطالع منها سوى ٦٠ صفحة، وبعد كل تلك السنوات عثرت على نسخة منها نظيفة في متجر للكتب المستعملة فكان لي أن أغتنم هذه الفرصة مرة أخرى لمعاودة قراءتها، وقد اكتشفت أنها تحفة حقيقية لأن توماس مان اختارها والكثير من القراء يعرفون أن قصتها غير عادية على الإطلاق، وقد كتبها على مدار ١٦ عاما يعيد فيها قصة مألوفة من سفر التكوين حدثت في العهد القديم أو كما كان يعرف بفترة العمارنة التي عاش فيها يعقوب بن إسحاق وأبناؤه الاثنا عشر كان يوسف أكثر إثارة للإعجاب بينهم والذي لفت انتباه فرعون مصر ليصبح بعدها مسؤولا عن خزائنها بعد تفسيره للسنوات العجاف التي حلم بها الفرعون، ومتناولا فيها الخيانة والغدر في أبشع صورها، وزوجة العزيز بوتيفار التي روادته عن نفسه، وغرور السلطة، والصبر، والإيمان، والتخطيط السليم الذي ينم عن عقلية جبارة تتخطى المألوف، والتسامح الذي لا حدود له كلها في سرد لا يخلو من سحر. أنفق مان ٨٠ صفحة من ملحمته في تصوير خيانة زوجة بوتيفار ومحاولتها إغواء يوسف ثم اتهامه زوراً بمحاولة اغتصابها بعد أن رأت منه تمنعاً وصدوداً ما جعل من عزيز مصر سجنه كما ورد في النص الأصلي من السفر و أحداث أخرى كثيرة منها حديث الزوجة مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن وأساليب الإغواء التي اتبعتها مع يوسف بوصف مقنع استغرق منه ١٦ عاما لإكمال الرواية بدءا من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٤٢، ولغرض الوقوف على الأماكن الحقيقية التي جرت عليها تلك الوقائع فقد سافر عام ١٩٣٠ إلى الشرق الأوسط حيث زار دلتا النيل حتى أسفل النوبة وهي الأماكن التي يرجح أن تكون قد استقبلت أحداث الرواية الحقيقية في سنواتها الصعبة التي مر بها يوسف، الزيارة هذه يقول عنها مان أنها منحته القوة للاستمرار في كتابة الرواية، غير أن ألمانيا سرعان ما أصيبت بكساد اقتصادي كبير إضافة إلى بقع كثيرة من العالم خلال تلك السنوات نتيجة لتداعيات الحرب الكونية الأولى ونجاح هتلر في انتخابات الرايخ الألمانية عام ١٩٣٠ ما جعل مان يؤجل كتابتها موقتا، وكان من السهل عليه التعرف على الأخطار التي تهدد الديمقراطية الوليدة في بلاده بمشاركته تشكيل جبهة لمواجهة اليمين المتطرف، مشيرا في نفس العام إلى التحذير على الانقلاب على الحياة البرلمانية، وبعد وصول الحزب النازي إلى الحكم عام ١٩٣٣ لم يبق أمامه غير الهجرة، بعد ذلك قام النازيون بسحب الجنسية عنه عام ١٩٣٦ وبعد أن قضى بضع سنوات في السويد اضطر مجددا للهجرة إلى الولايات المتحدة والإقامة فيها مع عائلته. يوسف وإخوته ".

عمل كبير تضافرت فيه الدراسة المعمقة والخيال الخصب تسلل خلالها المؤلف إلى ثقافة اليهود وكتابها المقدس، وثقافة أخرى أكثر غرابة هي لقدماء المصريين، وقد قال مان في وقت مبكر من شروعه بكتابة الرواية أنه لا يخفي كم لاقى من صعوبة وهو يكتب عن أناس لا يعرف بالضبط من هم! مضيفا لمسات رائعة أخرى بحديثه عن حب يعقوب النبي لراحيل التي تزوجها في ما بعد، مقارنا بينها وبين زوجة بوتيفار التي عشقت يوسف دون أن يبادلها ذلك العشق المحرم، مع ملاحظة أن يوسف كان على علم بالدور الذي رسمه الله له ما أعطاه الشجاعة لتحمل كل تبعات الحياة وهو القادر على نصره، توماس مان قال في " يوسف وإخوته " أنه صنع تحفة ستتذكرها البشرية مع تقادم الزمن مع أنها بنيت على ماض لن ننساه أبدا، كتابة / يوسف ابشتاين وهو كاتب أمريكي ولد عام ١٩٣٧ في شيكاغو وقد عرف بكتابة المقالات الأدبية والقصة القصيرة، عمل محررا في مجلة الباحث الأمريكي كما حاضر في جامعة نورث وسترن من عام ١٩٧٤ حتى ٢٠٠٢ وشارك أيضا كمحرر في ويكلي ستاندارد، تقلد وسام العلوم الإنسانية من قبل المؤسسة الوطنية الأمريكية للعلوم الإنسانية وله عدة كتب منها: كتابه الأخير الذي سيتم نشره هذا الخريف بعنوان " مقالات في السيرة الذاتية "، " إخوة يوسف " هو أحد هذه المقالات.

٠ عن / وول ستريت جورنال.. من ارشيف الراحل احمد فاضل

# زيارة إلى توماس مان

عمر أبو سمرة

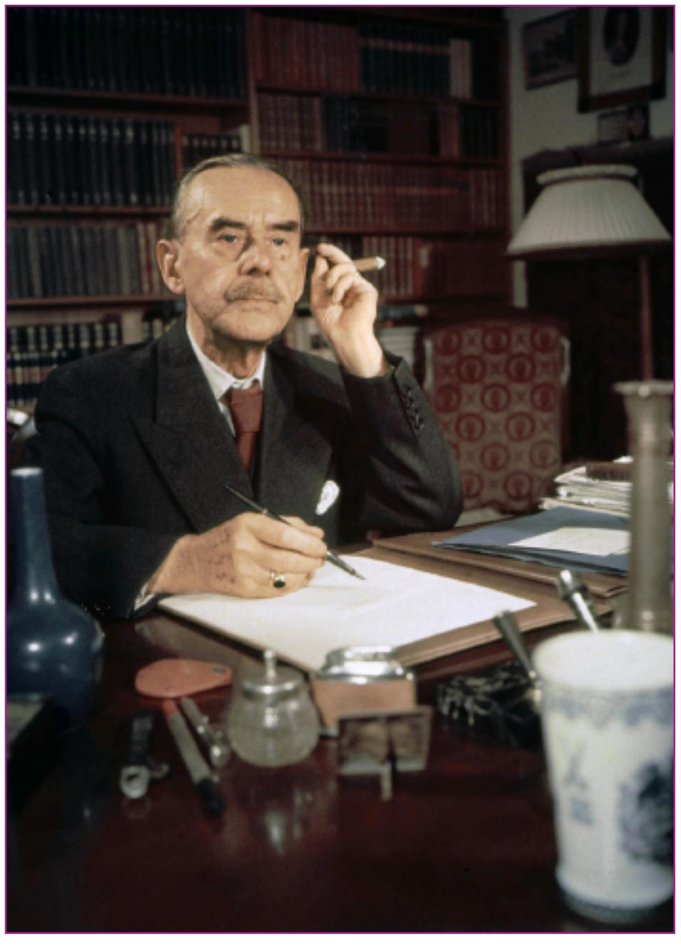

لا أُنكر شُعوري بالرهبة وأنا أتلصّص بحذر على مكتبة توماس مان (١٨٧٥ – ١٩٥٥) الخاصة، ومنضدته التي كتب عليها أعمالاً كـ"آل بودنبروك" (١٩٠١)، و"الجبل السحري" (١٩٢٤)، و"دكتور فاوستوس" (١٩٤٧)، في المعرض الدائم الذي يُقيمه "المعهد الفدرالي للتكنولوجيا" في زيورخ لمتعلقات الروائي الألماني الحائز على "جائزة نوبل للآداب" عام ١٩٢٩، مُتعة ورهبة اكتشاف شكل أثاثه والعدسة المُكبّرة خاصته وصور عائلته لا سيما صور أطفاله، والكتب المتراصّة التي تضمّ ما يقرب من ٤٣٠٠ عنوان، عدا عن الجرائد في لغات متنوّعة، وأعماله المترجمة للإنكليزية والفرنسية ولغات أخرى. القارئ المحبّ لأعمال مان لا بدّ أن يشعر بنشوة وكأنّ شخصيات رواياته حاضرة أمامه في تلك الغرفة الحمراء المُفعمة بالزخرفات والصور والكتابات.

أثناء مشاهدتي لهذا الأرشيف والمقتنيات، رافقني في تلك الغرفة الحمراء الموسيقار أدريان – الشخصية الرئيسة في رواية "دكتور فاوستوس" . الذي يُحاول تأليف أوبرا موسيقية، ويُساوم على روحه مقابل أن يتحلى بعبقرية لا مثيل لها بتأليف الموسيقى، ويمقت ألمانيا وتاريخها المظلم. لكن ما أثار اهتمامي فعلاً هو رؤيتي لطبعة أولى من روايته الأشهر "آل بودنبروك" رأيتُ كرستيان بودنبروك وانهيار عائلته البورجوازية، وتذكرت الرواية ونقدها اللاذع لصورة الحياة البورجوازية الألمانية في القرن التاسع عشر.

إن أحد أسباب عرض هذه المقتنيات والأرشيف في "المعهد الفدرالي للتكنولوجيا" يعود للعلاقة الجيّدة بين عائلة مان وكارل شميد، رئيس "الجامعة الفدرالية السويسرية" في زيورخ بذلك الوقت. حيث شكر توماس مان عميد المعهد في رسالة كتبها بتاريخ التاسع من حزيران/ يونيو ١٩٥٥ على الاهتمام الذي لم يتوقعه، وكتب فيها: "أن أكون الآن مُرتبطاً بـ"الجامعة الفيدرالية" شرف أتعتّى به إلى الأبد".

وعندما رحل مان بعد شهرين في زيورخ، واصلت أرملته كاتيا علاقة الصداقة مع "المعهد الفدرالي للتكنولوجيا" في زيورخ. وأشار نجله غولو مان إلى أن قرارهم كوَرَثة بالتبرُّع بأوراق وكتب وأرشيف مان ومقتنياته الشخصية بأكملها إلى سويسرا كان بمثابة تحقيق لرغبة توماس مان: "كان قلبه ملكًا لسويسرا. وكان عنوانه الأخير هنا؛ وكانت ذاته هنا". وبعد عام واحد فقط من وفاة توماس مان، وقّع "المجلس الفيدرالي السويسري" على صكّ التبرع وأسس "المعهد الفدرالي للتكنولوجيا" في زيورخ أرشيف توماس مان.

في الحقيقة كانت زيورخ سبباً مُهمّاً لبقائه على قيد الحياة في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية: كان توماس مان منفيًا في كوساخت، وهي مقاطعة صغيرة في زيورخ، من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٣٨. وفي تلك الأثناء أقام صداقات مُهمّة، مثل صداقته مع الناشر إميل أوبريخت الذي عُرف بدعمه للكُتّاب المُضطهَدين. وبعد نفي توماس مان من الرايخ الألماني، قام بنشر بيانه السياسي ضدّ "الاشتراكية القومية" بشجاعة، تحت اسم "مراسلات بون"، لا سيما بعد ضمّ النمسا إلى الإمبراطورية الألمانية، ليُهاجر من بعدها إلى الولايات المتحدة الأميركية لفترة طويلة. لكنه يعود إلى سويسرا مرّة أخرى قبل سنوات من رحيله.

رحل توماس مان في الثاني عشر من آب/ أغسطس ١٩٥٥ في "مستشفى كانتون" بزيورخ، ودُفن في كيلشبيرغ مكان إقامته الأخير، لقد تحقّقت أمنيته، التي عبر عنها بالفعل في رسالة: "أريد أن أدفن في سويسرا، لا محالة".

٠ عن العربي الجديد

# العالم بوصفه مصحاً.. في رواية (الجبل السحري) لتوماس مان

د. نادية هناوي

إذا كان افلاطون قد فكر في العالم فلسفيا بوصفه مدينة فاضلة هي يوتوبيا فردوسية لعالم صالح وسعيد؛ فإن هوميروس فكر في العالم شعريا بوصفه طروادة هيروتوبية.

ولا عجب بعد ذلك أن يدلل المتحصل من مآسي هذا العالم الرهيبة أن مثالية التفكير في العالم تندحر أمام التخييل الواقعي الذي فيه البشرية على مر الأزمنة أبعد ما تكون عن اليوتوبيا الافلاطونية وأقرب ما تكون إلى الهيروتوبية الهوميروسية.

وقد لا يوصل التفكير في المعقول إلى إجابات ما لم يكن التفكير في اللامعقول ملازما له فيكون التفكير في العالم هو الجنون ويكون العالم هو المجنون المفكر فيه. بمعنى أن وراء العالم المفكر فيه عالما لا مفكرا فيه. وليس مثل الكوارث والنكبات محفزا على التفكير فلسفيا أو إبداعيا في العالم المجنون والتساؤل عن فحوى غضب الطبيعة على الإنسان تارة بالزلازل والفيضانات البراكين وتارة أخرى بالأمراض والمجاعات والإبادات والحروب.

وواحد من المفكرين في جنون العالم ميشيل فوكو الذي تتبع تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي فوجد أن الحجز والاستشفاء منفصلان عن عالم الطب وأن لا تواصل حقيقياً في الطب بين النظرية والعلاج الذي كان يعطى للحمقى على يد الحراس لا على يد الاطباء وفي شكل نظام صارم كان يتبع يوميا في دار سان لوي في سالبيتر بير. وقد جسّد توماس مان جنون العالم الحديث قبل فوكو، وذلك في عمله الروائي الضخم(الجبل السحري) الذي ترجمه إلى العربية علي عبد الامير صالح عام ٢٠١٠ وصدر عن منشورات الجمل.

والرواية كلاسيكية يبلغ عدد صفحاتها ألفا إلا نيفا وتتناول موضوعة المرض الفتاك الذي أصاب ألمانيا في مطلع القرن العشرين وجعل السكان تحت سلطة المرض والموت.

ولقد درس بول ريكور هذه الرواية في أحد أجزاء أطروحته الثلاثية (الزمان والسرد) كواحدة من أربع روايات مهمة نظرا لما فيها من حيّز سحري خاص بين الواقع والزمان، به تعامل الكاتب مع العالم المجنون بشكل مبتكر من خلال مصح(بيرغهوف) المخصص لمرضى السل القاتل، داميا الابعاد الثلاثة(المرض والثقافة والموت) في التجربة الفريدة التي خاضها الشاب هانس كاستورب بطل الرواية الذي مر ذات يوم بالمصح فوجد نفسه بين ليلة وضحاها أحد نزلائه ليعيش فيه سبع سنوات مأساوية، ومصيره معلق بين الحياة والموت حيث القطاعات الإلإنسانية وهوس معاداة الطبيعة. وقد أفقده القلق على حياته قوته كما حولته مراقبته الصارمة لدرجة حرارة جسده الى إنسان هزيل طريح الفراش.

أما التفكير فسلبه عقله بالحوارات والنقاشات التي كان يتبادلها مع صديقه يواكيم الذي شاطره الهم إزاء غريب عاشا وسطه لا هو بالخرافة ولا الغواية ولا العدمية.

وابتدأت تجربته مع المرض في مصح بيرغهوف حين عرف نفسه أنه معافى(نعم معافى عدا فقر الدم) الرواية، ص٧٤. وإينما يرد ذكر المصح في الرواية الضخمة فإنه يكون مقرونا بوصف (الاعالي) في إشارة رمزية إلى الجنون الذي جعل مرضى السل يقطنون على قمة الجبل.

والجنون الذي عرفه كاستورب هو لا منطقية الوقائع المريرة التي شاهدها فصدمته بقوة سواء التي عرفها من يواكيم الذي كان أحد العاملين في المصح قبل أن يكون نزيلا فيه أو التي سيعرفها حين يقطن في المصح مريضا بالسل ليجتمع بمرضى من فئات عمرية مختلفة في أوقات الطعام والعلاج. وهؤلاء المرضى لهم سيميائ واحدة رجالا ونساء حيث الوجوه شاحبة والصفير لا انقطاع له منطلقا من صدور منخورة، والابدان هزيلة ومتخشبة بيض كالعاج في أحيان كثيرة.

وأول مشاهدة لاحت لكاستورب قبل أن يكون سجين هذا المصح هي هيرمينه كليفيلد الفتاة التي مرت منه فصغرت لا من شفتيها بل من صدرها، وهو ما أثار حفيظته فتداعت في داخله مشاعر سلبية هي بمثابة استباق زماني به وجه السارد الحبكة الروائية توجيها منطقيا معصعدا وتيرة السرد شيئا فشيئا ودافعا بالحبكة الى التعقيد امتاعا وادهاشا.

ولا تخفى براعة الساردفي توظيف شخصياته لاسيما شخصية يواكيم التي أدت دور المساند للشخصية الرئيسة فحين تأخذ الحيرة كاستورب وهو يسمع صفير هيرمينه يشرح يواكيم له السبب علميا وهو أنه (حين تكون إحدى الرئتين متأثرة والاخرى معافاة تقريبا يجعلون الرئة السيئة تتوقف عن العمل فترة قصيرة كما يعطونها راحة).

وبالمساندة الفنية والموضوعية يغدو كاستورب أكثر قوة ومرونة في التعاطي مع الحياة الجديد الذي عايشه سبع سنوات. وقصدية العدد سبعة معروفة ميثولوجيا وبما يجعلها تعني رمزيا أن البطل عاش الدهر كله.

ولأن الصفير كان أهم ملمح من ملامح المصح(أناس غازيون يملأون كل أسبوع رئتهم بالنتروجين، غريبو الأطوار) تعارف الأطباء على تسمية المصح بـ(نادي نصف الرئة) وهيرمينه هي مفخرة هذا النادي(لانها كانت قادرة على أن تصفر برئتها. إنها موهبة خاصة.. تفعل هي هذا كي تلقي الرعب في أفئدة الناس وبخاصة حين يكونون جديدين على المكان).

وتتواتر في الرواية مشاهد البؤس البشري من خلال يوميات كاستورب، ومنها مشهد المرضى وهم يقفون ارتالا يتسلمون حقنهم في الفخذ والذراع ويعودون أدراجهم، ومنها ارتفاع أثمان أوعية الاوكسجين فكان الوعاء الواحد لا يعطى للمريض إلا الى ذاك الذي يعاني سكرات الموت في محاولة أخيرة لإثارة قوته أو تعزيزها. وما بين الابتهاج والجنون والبشاعة والوقاحة يكون مصح(بيرغهوف) تجسيدا واقعيا للعالم المجنون.

وليس ثمة فارق مكاني بين المصح وسكانه المجانين، وبين المدينة وسكانها العقلاء سوى أن الاول واقع على قمة الجبل والاخر واقع في أسفله، وستكشف الرواية في خاتمتها عن الذكاء الكبير في هذا التوظيف المكاني للجبل، إذ سيكون التوافق عجيبا بين الزمان والمكان بالانفجار الذي ضرب أسفل الجبل فانهار أعلاه.

ويأخذ السارد بالشخصية الرئيسة نحو الجنون أولا حين يفكر كاستورب في نفسه فيجد أن(المرض والموت ليسا أمرين جديدين على الاطلاق) وثانيا حين يرى ويسمع عن أرقام لوفيات تحاط بالسرية التامة، وعن طرائق تعامل الأطباء مع المرضى الذين يمرون بصدمات عصبية، وثالثا في الغرائب التي ينقلها عن الطبيب كافكا، ومنها لامسؤوليته في تعامله مع مرضاه، فهو مثلا لا يعتني بنظافة محقنة الزرق تحت الجلد مما كان يتسبب بكارثة انتشار العدوى من مريض الى آخر، فضلا عما كانت تعمله بعض الادوية والعلاجات من أضعاف مناعة المرضى تجاه المرض. وكيف أن أحد الاطباء كان يشجع المرضى على احتساء كميات كبيرة من العنب مما يجعلهم يموتون كالذباب لا بسبب السل الرئوي ولكن بسبب تليف الكبد.

وبسبب المكوث الطويل في المصح لم يعد كاستورب يعرف (ما إذا نجح أم خسر في صراعه مع المرض) الرواية، ص٤٣، بل صار إنسانا بائسا، ومريضا يائسا، يلازمه المحرار الطبي رفيقا تجتاحه الرجفة من دونه، وهزيلا مصابا بالدوار من كثرة الاستلقاء.. واهتزت ثقته بالاطباء وخاصة دكتور كروكوفسكي الذي كان مسؤولا عن علاجه لكن من دون اكتراث فـ(لم يكن ليبالي أين يقحم أبرته لذا كثيرا ما يكون الألم حادا والبقعة صلبة وملتهبة بعد ذلك بوقت طويل..كان رد فعل الجهاز العصبي كردة بعد مجهود عضلي شديد) الرواية، ص٤٨٣.

هكذا صار الجنون يلازم كاستورب فمثلا حين يفكر مليا في الشفاء والخروج من المصح ليعود الى حياته الطبيعية، يتردد في قبول هذا الامر وكأن الشفاء والرحيل لا يلتقيان(أنا أخجل أن اتنازل بسرعة وارحل هكذا لمجرد أنني شعرت بوعكة صحية وبأنني محموم على مدى أيام قلائل سأشعر بأنني جبان تماما سيكون ذهابي شيئا عديم المعنى) الرواية، ص١٢٧ كما كان كثير التفكير في الأبدية واللامحدودية وصار يطرح أسئلة جنونية عن الزمان من قبيل: هل يحتمل أن لا يكون هناك زمن.. إن لم يكن ثمة زمن؟ هل الزمن وظيفة المكان أو أن المكان هو وظيفة الزمن؟ وكيف نعد الزمن أبديا والمكان لا محددا؟

وغالبا ما تشي تساؤلات كاستورب بفلسفة ذرائعية وهو يناقش سلطة الدولة والقانون الالهي والكنيسة والعلم الطبيعي وكيف أن عدم مشروعية العلم الفلسفية قادت البشرية وستظل تقودها ابدا الى الظلام فيتساءل (ماذا بشأن افلوطين الذي قال إنه كان يشعر بالخجل لأن له جسدا؟ أو فولتير الذي باسم العقل احتج فهو زلزال ليشبونة المخزي؟ هل كانا سخيفين؟ ربما) الرواية، ص٥٤٦.

وستتأتى هذه الافكار على المستوى الموضوعي بالصدمة التي يسببها على المستوى الفني انفجار المنجم تحت الجبل، ليغدو سحريا وهو يعلن انتهاء الفيروس الوبائي بانتحار مرضى مصح بيرغهوف الذين غدوا كالنمل يرمون أنفسهم بقوة رأسا على عقب من علو خمسة الاف قدم.

اما كاستورب الذي صيرته الرواية الضخمة في خاتمتها مفكرا؛ فبأن كتلة من الطين ضربته فترنح واختفى مودعا الجسد المحموم محتفلا بالموت كروح تتمرد على جسدها(من هذا العيد الشامل للموت من هذه الدرجات القصوى من الحمى، مضيئا سماء المساء المغسولة بالمطر محولا إياها الى وهج ناري، هل يحتمل أن يعتليها الحب يوما ما؟) الرواية، ص٩٨٧.

وبهذا تنتهي الرواية الضخمة التي نشرت عام ١٩٢٤ أي تزامنا مع ما كان العالم يشهده من ظهور وباء الانفلونزا الاسبانية عام ١٩١٨ والذي اودى بحياة أكثر من أربعة ملايين أوربي وكان يصيب بالدرجة الاساس الشباب الاصحاء وكان تفاقمه يؤدي الى الإصابة بالالتهاب الرئوي ليكون هذا المرض الكارثة الطبية الأقوى في تاريخ البشرية.

وما أرادت الرواية توكيده هو أن ليس المرض وحده يفتك بالبشر، بل سوء التفكير في المرض وتردي التعامل المعيشي، هذا فضلا عن أهمية الثقافة التي لها علاقة عكسية بالمرض فكلما ارتفع معدل الثقافة قلت مخاطر انتشار المرض. والرواية خير أداة في الحض على التفكير وغرس التثقيف وتعميق الوعي الميتافيزيقي بالوجود وما بعده.





# توماس مان يتلمس صعود الفاشية بين زعيم مخادع وجموع مخدوعة

إبراهيم العريس

خلال النصف الثاني من عشرينيات القرن الـ٢٠، دار سجال عنيف بين الكاتبين الشقيقين هاينريش وتوماس مان. وكان الأول هو الذي بادر مهاجماً أخاه، الكاتب الألماني الأشهر في ذلك الحين، لأن هذا الأخير لم يكن قد تلمس بعد أخطار صعود الزعامة النازية في وقت كانت تلك الأخطار تفقأ كل العيون. بالنسبة إلى هاينريش الذي كان كاتبا تقدميا من الناحية السياسية، كان عيب توماس أنه، حتى وإن كان أشار إلى الفاشية وتأثيرها في الناس في بعض كتاباته، فإن الإشارات أتت دائماً مبهمة لا يمكن للقارئ تلمسها بسهولة، ومن ثم فإنها غير مفيدة في المعركة الفكرية التي كان يجدر بكل مثقف ألماني وغير ألماني شريف أن يخوضها ضد صعود فكر يخدر الجموع ويحولها إلى قطيع أغنام ينصت إلى الزعيم ومساعديه كالمنوم مغناطيسيا، ويطيع أوامره من دون تبصر حتى ولو أمره أن يذبح نفسه. كان هنا، في هذه النقطة من العلاقة بين الزعيم المخادع والشعب المخدوع، يكمن خطر ديكتاتورية النازية في رأي هاينريش مان، كما في رأي جمهرة كبيرة من المتنورين والتقدميين والديمقراطيين الألمان في ذلك الحين. فالزعيم الفاشي لا يولد هكذا ولا يحكم بمفرده، بل هو يحكم مستنداً إلى غفلة جمهوره الموالي له من دون تبصر. طبعاً كان توماس مان عبر عن هذا الواقع في بعض ثنايا "الجبل السحري" (١٩٢٤)، لكن التعبير داخل "الثنايا" ليس كافياً، إلا في مجال إراحة ضمير الكاتب. وفي ظل صعود الفاشية والنازية وأكاذيب الزعيم وضروب خداعه، المطلوب هو أكثر من ذلك بكثير: المطلوب الوضوح وإيصال الرسالة إلى الجمهور العريض.

## موافقة مواربة

كان ذلك هو فحوى السجال. وكان كثر يرون أن هاينريش محق في موقفه. وتوماس مان ما لبث أن وافق على هذا لاحقاً، وإن كان في شكل مواربٍ، كان ذلك حين نشر عام ١٩٢٩، قصته الطويلة "ماريو والساحر" التي ستعد، من ناحية، استجابة لمطلب هاينريش، ومن ثم من الناحية الثانية أكثر روايات توماس مان تدور في إيطاليا، كما هي الحال في أعمال أخرى له من بينها، طبعاً "الموت في البندقية". وعلى هذا النحو تصلنا الفصول الأولى من "ماريو والساحر"، من طريق راوٍ يصف رحلة إلى منطقة توري دي فينيري الإيطالية، يقوم بها لكنها لا تلبث أن تقسد بالنسبة إليه وإلى عائلته... والسبب أنه سرعان ما يلاحظ أن معظم أفراد الشعب الإيطالي الذين يلتقيهم خلال رحلته، صاروا غارقين في نزعة قومية عماداها الأول كراهية الأجانب. لا سيما حين يصغي الشعب بكثرة إلى الزعيم وهو يتحدث، في شكل صاخب وكاريزمي، حديثاً ديماغوغياً ممتعاً، يسهب فيه في وصف مزايا جماعته وانتصاراتهم على تأمر العالم ضدهم. وهنا ما إن ينتهي هذا النصف الأول من القصة، حتى يبدأ القسم الثاني الذي يبدو للوهلة الأولى غير ذي علاقة إطلاقاً بالنصف الأول. إذ هنا تظهر في الرواية شخصية تشيبولا، كمنوم مغناطيسي يستخدم قواه السحرية، بطريقة تهدف للسيطرة على جمهوره. وإذ تتتابع الأحداث تظهر شخصية أخرى، هي شخصية الشاب ماريو ابن المنطقة الذي ينتهي إلى قتل الساحر بعدما يتيقن من أن ثمة شراً كبيراً وخطراً مقبلاً في خلفية ممارساته. ومن هنا لا يعود قتل تشيبولو على يد ماريو جريمة أو مأساة، بل مجرد خطوة تجعل الحرية إلى الجمهور المسحور الذي بات واضحاً أنه، تحت تأثير الزعيم الساحر، صار مستعداً ليس فقط للتضحية بالآخرين وللانقضاض على الخصوم إن طلب منه زعيمه الساحر فعل مثل هذا الأمر، بل هو مستعد للتضحية بنفسه أيضاً كرماً لعيون ذاك الذي سحره.

هذا هو باختصار موضوع "ماريو والساحر"، هذا النص الذي كان هاينريش مان أول الذين أثنوا عليه، مثبتاً لشقيقه من ناحية بأنه سيعطيه مكانة إضافية في مسرح الأدب العالمي، ومن ناحية ثانية بأنه سيورطه مع النازيين. والحقيقة أن نبوءة هاينريش من هذه، تحققت في شقيها. لكن الأهم من هذا أن توماس مان، بدا بها عريقاً في الكتابة عن الفاشية والزعامة التي تعتمد تخدير الجمهور وخداعه للاستحواذ عليه. ومن هنا، لأن الفاشيين الإيطاليين كانوا وصلوا إلى الحكم في بلادهم قبل وصول نازيي هتلر إلى الحكم في ألمانيا، سارع الإيطاليون إلى منع الرواية إذ ترجمت من فورها إلى الإيطالية. أما النازيون الألمان فقد كانت "ماريو والساحر" من أول الكتب التي منعوها ثم أحرقوها ما إن وصلوا إلى السلطة في عام ١٩٣٣، والحقيقة أنهم فعلوا هذا لأن الرواية بدت مؤذية لهم خلال الأعوام التي فصلت بين صدورها ووصولهم إلى الحكم، إذ إن تعرية مان فيها لآلية هيمنة الزعيم على الجمهور بدت قوية ومقنعة، بحيث إن كثرا من الدارسين والمعلقين رأوها تنطبق على هتلر وموسوليني ولكن كذلك على ستالين، ثم على فرانكو حتى وإن كان هذا لم يصل إلى السلطة إلا أعواماً بعد صدور الرواية. ولعل قراءة "ماريو والساحر" في أيامنا هذه، تضيف أسماء أخرى كثيرة إلى ما ذكرنا، أسماء زعماء حديثين ومعاصرين، وصلوا إلى السلطة أو لم يصلوا إليها بعد.

إذاً تحتل "ماريو والساحر" مكانة أساسية ومهمة في مسار تطور الكاتب الألماني توماس مان، الذي حاز جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٩ عام صدور هذه الرواية وربما بتأثير منها، حتى وإن كانت لجنة نوبل ركزت على ذكر رواية سابقة له هي تحفته "آل بودنبروك" (١٩٠١) في حيثيات منح الجائزة، ومع هذا فعلينا ألا نغفل هنا عن واقع أن "ماريو والساحر" لا يمكن اعتبارها العمل السياسي الوحيد في مسار توماس مان (١٨٧٥ - ١٩٥٥) الروائي، إذ إن قراءة معمقة لمعظم أعماله تضعنا أمام مواضيع سياسية، قد تكون أحياناً ملتبسة، لكنها في جوهرها قوية من الناحية السياسية.

• من ارشيف صحيفة الحياة اللندنية

manarat
www.almadasupplements.com
رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون
منارات

# رواية آل بودنبروك لتوماس مان تفاصيل عن إنهيار عائلة

عــلاء الـمـفـرجـي

العائلة كانت موضوعا للعديد من الروايات العالمية، نذكر منها: رواية مئة عام من العزلة للكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز، وأسرة تيبو لمارتان دوغار، وجين إير للكاتبة الإنجليزية شارلوت برونتي، وغيرها الكثير

بودنبروك هي رواية الألماني توماس مان الأولى، والتي صدرت في سلسلة روايات نوبل بترجمة محمود إبراهيم الدسوقي ومراجعة عبد الرحمن بدوي، والتي نشرت لأول مرة في عام ١٩٠١ عندما كان مان في الـ ٢٦ عاما، ولاقت نجاحاً كبيراً قاد توماس مان إلى الحصول على جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٢٩، فعلى الرغم من أن جائزة نوبل لا تمنح بسبب عمل محدد، حددت الأكاديمية السويدية رواية بودنبروك كسبب رئيسي لحصوله على الجائزة.

في عام ١٨٣٥، قامت عائلة آل بودنبروك الثرية والعريقة، وهي من تجار الحبوب، بدعوة أصدقائهم وأقاربهم لتناول العشاء في منزلهم الجديد في لوبيك. تتكون الأسرة من البطريرك يوهان بودنبروك الابن وزوجته أنطوانيت. ابنهما يوهان الثالث ("جان") وزوجته إليزابيث، وأطفال الأخير الثلاثة في سن المدرسة، أبناء توماس وكريستيان، وابنته أنتوني (توني). لديهم عدة خدم أبرزهم إيدا جونجمان التي وظيفتها رعاية الأطفال. خلال المساء، تصل رسالة من جوتهولد، الابن المنفصل ليوهان الأكبر والأخ غير الشقيق للأصغر. لا يوافق يوهان الأكبر على اختيارات جوتهولد في الحياة، ويتجاهل الرسالة. فيما بعد أنجب يوهان الثالث وإليزابيث ابنة أخرى، كلارا.

وتحكي الرواية قصة عائلة بودنبروك على مدى ثلاثة أجيال - جان بودنبروك وزوجته بيتسي؛ ابناهما توماس وكريستيان. ابنتهما توني. وابن توماس هانو. على الرغم من أنه يحبهم كثيرًا، يتوقع جان بودنبروك من أطفاله أن يُخضعوا سعادتهم الشخصية لرفاهية الشركة العائلية. أول من علم بذلك هو توني الذي، بعد عطلة رومانسية مع طالب طب من عائلة متواضعة، تزوج من بنديكس غرونليش، وهو رجل أعمال بارز في هامبورغ والذي أفلس بعد فترة وجيزة: وتعود جين إلى منزلها.

وفي الوقت نفسه، كان إخوتها يتعلمون مهنتهم في أمستردام ولندن. بعد أن صدمته كارثة توني الزوجية والعديد من المعاملات غير المحظوظة، قام جان بودنبروك بتسليم العمل إلى توماس، الابن الأكبر. يترك توماس عشيقته السرية، مساعدة بائع الزهور، وعلى الرغم من أنه لا يحبها يتزوج من جيردا، الوريثة الهولندية المهتمة أكثر بالعزف على الكمان ومعاشرة الأرستقراطيين. بعد قضاء بعض الوقت في فالبارايسو، يعود كريستيان إلى لوبيك لكنه لا يُظهر أي اهتمام بالشركة، ويفضل الشرب وارتياد المسرح، من أجل الممثلة ألين. يوت البطريرك جان وتقوم أرملته بيتسي بتجميع الأسرة ورعايتها. يلفت توني المطلق انتباه ألويس بيرمانيدير، وهو تاجر بافاري مبتهج يتزوجها ويأخذها إلى منزله في ميونيخ. دفعها ولعه بالشراب والخادمة إلى العودة قريبًا إلى لوبيك. تقترح على توماس أنه يمكنه توسيع نطاق العمل عن طريق شراء الحبوب قبل الحصاد من عقارات الأرستقراطيين البروسيين. يشتري محصولًا كاملاً يدمره البرد، ويخسر كل نفقاته ويضر بسمعته.

تنجب جيردا أخيرًا ابنًا هو (هانو)، الذي أثبت أنه موسيقي موهوب ولكن ليس لديه اهتمام بالعائلة أو العمل. في أوائل ستينيات القرن التاسع عشر، أصبح توماس أبًا وعضوًا في مجلس الشيوخ. قام ببناء قصر متفاخر وسرعان ما يندم عليه، حيث أثبتت صيانة المنزل الجديد أنها تستنزف وقته وماله بشكل كبير. ويصبح المنزل القديم كبيرًا جدًا بالنسبة لعدد الأشخاص الذين يعيشون فيه، وتصبح الحالة سيئة. يعاني توماس من العديد من النكسات والخسائر في عمله. إن عمله الشاق يبقي العمل على قدميه، ولكن من الواضح أنه يؤثر سلبًا عليه. يقيم توماس حفلاً للاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيس الشركة في عام ١٨٦٨، حيث يتلقى أخبارًا تفيد بأن إحدى صفقاته التجارية المحفوفة بالمخاطر أدت إلى خسارة أخرى.

عولجت الروايا، أكثر من مرة كمسلسل وفيلم، منذ الفيلم الصامت ١٩٢٣، وكمسلسل عام ١٩٥٩، وأخيرا الفيلم الدرامي الألماني عام ٢٠٠٨ من إخراج هاينريش بريلوير، والذي يقوم ببطولته أرمين مولر ستال في دور بطريرك العائلة القنصل جان بودنبروك، وإيريس بيربن في دور زوجته بيتسي بودنبروك، وجيسيكا شوارتز ومارك واشكي وأوغست ديهل في دور أطفالهم توني وتوماس وكريستيان بودنبروك على التوالي.